تجليات حسّ المواطنة في الفيلم الجزائري "ريح الجنوب

Manifestations of the Citizenship Sense in Monsoon Wind Movie

آمنة عشاب[1]* ، باية غيبوب[2]

[1]جامعة حسيبة بن بوعلي–الشلف (الجزائر) البريد الالكتروني:a.achab@univ-chlef.dz

2جامعة حسيبة بن بوعلي–الشلف (الجزائر) البريد الالكتروني: baya02ghiboub@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/07/18 تاريخ القبول: 2022/08/31 تاريخ النشر: 2022/06/05

ملخص:

يعدّ فيلم ريح الجنوب من الأفلام الجزائرية التي برعت في التعبير عن الواقع الجزائري، فهو فيلم اجتماعي مقتبس من رواية ريح الجنوب، تمّ إنتاجه في منتصف السبعينات (1975م)، حيث عالج قضية اجتماعية ذات محورين هما: الأرض والمرأة. وفي هذا السياق كشف عن عدّة تجارب سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية تعكس صور المواطنة داخل المجتمع الجزائري .عبّر هذا الفيلم عن فترة زمنية ارتبطت مباشرة بما بعد الاستقلال، حيث ترجم بصورة مرئية أهم مظهر من مظاهر الحرية وهي" المواطنة" التي تجعل الفرد يجمع بين حقوقه ومسؤولياته في آن واحد . وتتجلّى في الفيلم في بعض الشخصيات، نذكر أهمّها " سي مالك" كشخصية ثورية لها حضور سياسي ووعي قومي، والمعلّم "سي الطاهر" كشخصية مثقفة لها فكرها الخاص في التعبير عن المواطنة، وفي الاتجاه الآخر نجد " عابد بن القاضي" الذّي قدّمه الفيلم كشخصية إقطاعية تقدّم مصلحتها قبل مصلحة الوطن .بالإضافة إلى " نفيسة " التي تبحث عن حرية ذاتها في ظل النظرة الدونية للمجتمع الريفي للمرأة . وفي ظلّ الصراع الفكري الذّي يعكسه الفيلم، سنحاول استظهار أبعاد المواطنة بناءا على خصوصية السّرد الفيلمي.

كلمات مفتاحية: المواطنة؛ التصوير السينمائي لروح المواطنة؛ جمالية الوصف السينمائي.

* المؤلف المرسل: د. آمنة عشاب.

Abstract:

The Wind of the South (Monsoon Wind) is one of the Algerian films that proficiently tackled the Algerian reality. In fact, it is a social film adapted from "Wind of the South" novel, produced in the mid-seventies (1975). It discussed a social issue with two axes: the land and the woman. In this context, it revealed several political, economic, social and cultural experiences that reflect images of citizenship within the Algerian society. This film depicted the postcolonial period. It transferred visually the most important manifestations of liberty which is the citizenship. Accordingly, some of the characters appear in the film, such as; "Si Malik" who is a revolutionary figure with a political presence and national awareness, and the teacher "Si Al-Taher", as an intellectual man who has his own idea of expressing citizenship. On the other hand, there is "Abed bin Al-Qadi," who was presented as a feudal character. In addition to "Nafisa" who was seeking for her freedom in the rural society that despises women. Therefore, in light of the intellectual conflict that the film reflects, the present paper attempts to highlight the dimensions of citizenship based on the specificity of the film narration.

Keywords: citizenship, cinematography for the spirit of citizenship, aesthetic cinematic description.

نص المقال :

تعدّ المواطنة سلوكا حضاريا يرتبط بالمجتمع ارتباطا وثيقا، ذلك أنّها تكشف عن حرية الفرد داخل مجتمعه مع وعي تام بمسؤوليته اتّجاه وطنه . فالمواطنة ممارسة فعلية تجمع بين الحقّ والواجب تظهر من خلال العلاقات القائمة بين أفراد المجتمع الواحد والدّولة . ولا يمكن لأيّ دولة أن تنشأ على روح المواطنة إلاّ إذا توفرت مقوّمات الدّولة الدّيمقراطية، من هنا نرى أنّ العلاقة بين الديمقراطية والمواطنة هي علاقة طردية. فكيف تجسّدت المواطنة في فيلم ريح الجنوب؟ ومامدى فاعلية التقنيات السّينمائية في تصوير أبعاد المواطنة؟ خاصّة وأنّ الفيلم وسيط تعبيري يقوم على الصورة والصّوت.

1-ماهية المواطنة:

أ–لغة: مشتقة من الفعل وطن، (الوطن هو المنزل الذّي تقيم فيه، وهو موطن الإنسان ومحلّه ... ووطن بالمكان ووطن أقام، وأوطنه اتّخذه وطنا"، والموطن ... ويسمّى به المشهد من مشاهد الحرب وجمعه مواطن، وفي التنزيل العزيز، لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ... وأوطنت الأرض ووطنتها واستوطنتها أي اتّخذتها وطنا، وتوطين النفس على الشيء كالتمهيد) (ابن منظور، 1968، صفحة 451) .

ب–اصطلاحا:

يعود أصل الكلمة ومدلولها إلى عهد الحضارة اليونانية القديمة، والمواطنة صفة المواطن باعتباره (ذلك الرجل الذّي غادر مجاله الخاص ليمارس الحرية السياسية مع نظرائه) (دولا فيكتورا، 2013، صفحة 51) ، فلا مواطنة بدون مواطن ، لأنّ (المواطن هو ملك أو المواطن هو السيّد) (schnapper, 2000, p. 10) ، الذّي يمارس كافّة صلاحياته داخل مجتمعه.

إنّ (المواطنة هي الهوية السياسية التي يكتسبها الفرد الاجتماعي بعد أن ينشأ نظام سياسي مفتوح يعترف له بحقوقه كاملة أمام الكائن السياسي الجماعي (الدولة) ويفرض عليه التزامات ماديّة مباشرة وهي عينها التّي تصنع شروط استمرار الكائن السياسي الفوقي ذاك، وتنظّم السياسة كتدبير للشأن العام يختصّ به كلّ المواطنين) (بلقزيز، 2001، صفحة 62) ، فالمواطنة تنشأ في جوّ سياسي عادل.

تذهب دائرة المعارف البريطانية إلى اعتبار المواطنة (علاقة بين فرد ودولة كما يحدّدها قانون تلك الدولة، وبما تتضمنه تلك العلاقة من واجبات وحقوق في تلك الدّولة ... والمواطنة تدلّ ضمنيا على مرتبة من الحرية مع ما يصاحبها من مسؤوليات، وعلى العموم تسبغ على المواطن حقوقا سياسية مثل حقّ الانتخاب وتولّي المناصب العامّة) (حسن، 2004، صفحة 244). فالمواطنة تضمن للفرد حريته داخل وطنه مع إدراك تام بواجباته الوطنية.

2–التمثيل السّينمائي للمواطنة :

تعدّ السّينما وسيطا تعبيريا جماهيريا، له صدى قوي وواسع لأنّه يخاطب مختلف شرائح المجتمع، حيث (تمكّنت السّينما خلال الفترة التّي سبقت اختراع التلفزيون من الاستحواذ على قاعدة جماهيرية واسعة ، بعد أن خطفت الأضواء من الصّحافة والمسرح وحتّى الإذاعة، انطلاقا من قدراتها الإقناعية وأساليبها الفنيّة التّي تقوم على الإثارة والإغراء وتصوير مشاهد الحياة الواقعية والعلاقات الاجتماعية

بنوعيها الكوميدي والتراجيدي) (كاظم الطائي، 2007، صفحة 99)، بذلك كان لها تأثيرا بالغا لإمكانياتها العجيبة في مخاطبة مختلف فئات المجتمع وسهولة استيعابها وتكيّف المشاهدين معها.

كما لا يخفى علينا الدّور الذّي يؤدّيه التلفزيون في تعميق الوعي الثقافي لوجود قواسم مشتركة بينه وبين السّينما، ذلك أنّه (يقوم بتعميق الوعي بالممارسات السلطوية والدّيمقراطية في المجتمعات المعاصرة ، ويسهم في زيادة وعيها السياسي) (كاظم الطائي، 2007، صفحة 87).

يعتبر التلفزيون أداة اجتماعية (تسهم في توحيد المجتمعات، من خلال توحيد الأفكار والمشاعر الإنسانية بين الناس وتوحيد عاداتهم وتقاليدهم وقيمهم وأنماط سلوكهم، وإنّ ذلك يؤدّي إلى خلق التماسك الاجتماعي ويعزّز التجانس ووحدة المجتمعات) (كاظم الطائي، 2007، صفحة 91)، فالتلفزيون وسيلة إعلامية للتواصل مع المشاهدين، وله فاعلية كبيرة في بثّ روح المواطنة في النّفوس من خلال البرامج الثقافية التوعوية ، التّي تهدف إلى توحيد الروابط الاجتماعية وإيقاظ المشاعر الإنسانية التّي تشعر المرء بمسؤوليته اتّجاه وطنه.

3-أبعاد المواطنة في فيلم ريح الجنوب:

أكّد عالم الاجتماع الانكليزي في إحدى محاضراته سنة 1949 على تعريف مفهوم المواطنة من خلال ثلاثة أبعاد هي(lerober, 1999, p. 76) :

البعد الأول : مدني: منذ القرن 18 عرف الفرد حرية التفكير والتعبير والاعتقاد بالإضافة إلى استفادته من العدالة وقدرته على التعاقد.

البعد الثاني : سياسي: في القرن 19 عرف المواطن حقّ الانتخاب والمشاركة المحدودة أو المباشرة في ممارسة السلطة السياسية في إطار مايعرف بالدّولة – الأمة . بالإضافة إلى التمثيل البرلماني .

البعد الثالث: اجتماعي: حيث ارتفع في القرن 20الالحاح على حقوق التعليم والرعاية الاجتماعية والصّحية.

إنّ هذه الأبعاد الثلاثة متكاملة مع بعضها البعض فلا يمكن للفرد أن يمارس حقّ المواطنة إلاّ إذا عرف حقوقه المدنية والسياسية والاجتماعية كاملة. وهو ما نحاول أن نستظهره في فيلم ريح الجنوب حيث تصبح الصورة والصوت وسيطا تعبيريا، إذ (تشكّل ثقافة الصورة حيّزا مائزا في الخطاب الثقافي، وتكاد الصورة تتفوّق على ثقافة الكلمة في كثير من مقامات الخطاب السياسي والاجتماعي ولعلّ المثيرات

البصرية والإيحاءات الدلالية المتوافرة في خطاب الصورة أكثر تأثيرا وإثارة من المثيرات الدلالية التّي يحويها الخطاب المقروء أو المسموع ، ولا يخفى أنّ الشفافية وغياب القناع الدلالي في ثقافة الصورة يوفران قطاعا واسعا من المتلقين على اختلاف مشاربهم الإيديولوجية وانتماءاتهم الطبقية) (عتيق، 2011، صفحة 1).

يكشف فيلم ريح الجنوب عن الوعي السياسي لشخوصه بوضع البلاد بعد الاستقلال مباشرة ، خاصّة مع ما خلّفه الاستعمار الفرنسي من فقر وجهل ودمار. وهو ما تطلّب وعيا جادا واتّحادا عاما من قبل المواطنين للنهوض بالمجتمع، ذلك أنّ الوعي السياسي (يعني معرفة المواطن لحقوقه السياسية وواجباته، وما يجري حوله من أحداث ووقائع، وقدرته على التطور الكلّي للواقع المحيط به ليعايش تجارب ومشكلات المجتمع السياسي الكلّي) (العليوي، 2012، صفحة 14).

يمكن لنا أن نستظهر أبعاد المواطنة في فيلم ريح الجنوب من خلال شخوصه التالية:

نفيسة: فتاة جامعية تفكّر في مواصلة دراستها واختيار زوجها بنفسها. ترى أنّ المرأة في قريتها لازالت تعاني الظلم والحرمان من أبسط حقوقها، ونضرب مثلا على ذلك بالمشهد الذّي يكشف عن الحوار الذّي جرى بين نفيسة والخالة رحمة، حيث تبيّن من خلاله نفيسة أنّها مسجونة على خلاف أخيها عبد القادر بصفته رجلا في نظر المجتمع. حيث تقول نفيسة : (المرا عندها حقها وحريتها ، والنّاس اللّي يهدروا في المرا ايلا خرجت على خاطر جاهلين.)

تسعى نفيسة لممارسة وطنيتها داخل أسرتها أولا ، محاوِلة توعية أهلها بحقّ المرأة في التعليم وفي اختيار زوجها برضاها ، مثلما يتضّح في المتتالية التالية :

تكشف هذه المتتالية عن الحوار الذّي جرى بين الأم وابنتها حول رغبة الأب في تزويج " نفيسة" من "مالك " شيخ البلدية، وهو ما ترفضه ابنتهما ، حيث ترى أنّ لها كامل الحقّ في مواصلة دراستها بالجامعة.

وهو مانستظهره في الصور التالية :

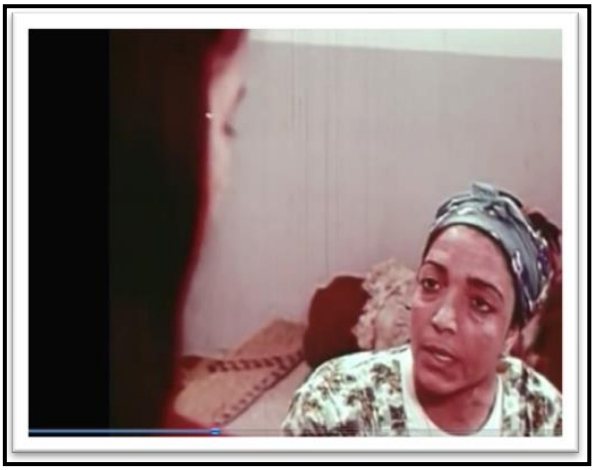

ترى "نفيسة" أنّ : (الحرية الممنوحة تشبه خبز الصدقة)، لهذا تردّ على قرار زواجها بمخاطبة أمّها بما يلي :(قوليلو مانزوّجش ومانبطّلش قرايتي ونروح لدزاير مهما كان الحال).

تعدّ شخصية " نفيسة " بؤرة مركزية في الفيلم نظرا للدّور الذّي تؤدّيه، فهي تصارع الجهل الذّي يسود العائلة والمجتمع من خلال إثبات فاعلية المرأة في بناء المجتمع، وأنّ لها حقوقها وواجباتها مثلها مثل الرجل، وهو ماكشف عن وطنيتها في عدّة مواقف، نذكر منها المشهد الذّي يكشف عن زيارة المقبرة في الجمعة كعادة اجتماعية، حيث نلاحظ أنّ نفيسة تتألّم للدّواب التّي تسرح في المقبرة، وترى ضرورة بناء سور أو سياج لتبقى نظيفة.

كما يكشف موقفها الواعي بضرورة توفير العلاج أثناء مرض العجوز رحمة باستدعاء طبيب للقرية عن إدراكها للوضع المزري الذّي تعيش فيه القرية، فالعلاج من أولويات حقوق المواطن.

بالإضافة إلى مشهد وفاة العجوز رحمة، حيث يجتمع النّسوة ويبدأن في الحديث عن البنات اللّواتي أُرغِمن على الزواج ، فتُوجِه لهن نفيسة كلاما لتوعيتهن بأنّ دور المرأة في المجتمع لا يكمن في الزواج فقط، وإنّما هي أيضا لها الحقّ في التعلّم وفي ابداء رأيها وهذا الكلام لقِي استحسانا لدى نساء القرية .

إنّ هذه المواقف تكشف على أنّ نفيسة تبذل جهدها وسط مجتمع جاهل لتمارس وطنيتها ، وهو الأمر الذّي لقِي تباينا بين مؤيد ومعارض ضمن شخوص الفيلم.

سي مالك: شخصية سياسية، مثقف، شارك في الثورة الجزائرية، ويشغل في الفيلم منصب شيخ البلدية الذّي يبذل جهده في سبيل خِدمة قريته والحفاظ على تحقيق العدل والمساواة بين سكانها .

ومن بين المواقف التي تكشِف عن وطنيته، المشهد الذّي يجتمع فيه سي مالك والمعلم ، حيث يوجّه سي مالك للمعلّم كلاما هذا هو نصّه :

سي مالك : (هذا هو الشعب، هاذوا الفقرا، كون يعرفو قوتهم وشجاعتهم، كون الظلم والجوع يموتو في هذي البلاد).

كما له مواقف وطنية أخرى مثل تشييد مقبرة الشهداء، ومواقف اجتماعية كتكفّله بجنازة العجوز " رحمة"، حيث مثّلت حدثا اجتماعيا تعاون كلّ سكان القرية لتشييع جنازة هذه المرأة الوحيدة.

العجوز رحمة : وتسمّى في الفيلم بـ " الخالة رحمة" ، حرفتها صناعة الأواني الفخارية حيث تسعى كلّ يوم لإتقانها. هي امرأة عاشت الثورة ولها خبرة في الحياة، تتألّم لحال شعبها بعد الاستقلال .تحافظ على العادات الاجتماعية، حيث تذهب كلّ جمعة لزيارة المقبرة، وهناك تخاطب زوجها قائلة: (مانعرفش لاش يبنو في الجوامع، النّاس ماعادت لاتخدم ولا تصلّي، من نهار الاستقلال النّاس قاعدين في القهاوي غير للقيل والقال).

فالعجوز رحمة تتأسّف على الحالة التّي يعيشها سكان القرية، حيث أهملوا خدمة الأرض وأغلب شبابها هاجروا أو أصبحوا يفضّلون الجلوس في المقاهي على العمل .

المعلم: هو صديق " سي مالك"، شخصية مثقفة، يُظهر في الفيلم ضعف المستوى المعيشي للمعلّم على الرّغم من واجبه الوطنيّ البارز، وهو ماتكشف عنه الصور التالية :

في هذا المشهد يقترح " سي مالك " على المعلّم أن يتزوّج بـ " نفيسة "، فيجيبه صديقه قائلا: (مرتب معلّم مايسمحلوش هذا النّوع من التدريب)، ثمّ يضيف قائلا (وين نصيب الْمْرا اللّي تقبل بمعلّم)

تكشف لنا هذه المتتالية على أنّ المعلّم في وطنه يعيش حالة مادية صعبة، نظرا لدخله البسيط والذّي لا يوفّر له متطلبات الزواج .

الشيخ: له دور ثانوي في الفيلم، لكن كلامه يكشف عن روحه الوطنية، وغيرته الشديدة على وطنه، وتأسفه لحال شباب قريته بعد الاستقلال. وهو ما يوضّحه المشهد التالي:

تكشف لنا هذه المتتالية عن حديث الشيخ مع الشاب، وهذا نصّه :

(الشيخ يقول : اسمع يابني من نهار الاستقلال، النّاس لاتيين غير بالقيل والقال.

كون ميشي أنتوما اللّي راكم في الغربة، كانت هذي الجهة مايبقى لادار لا دُوار. النّاس كرهت الخدمة كرهت لرض، النّاس تحوّس على المسؤولية برك.

الشاب يقول : شوف هذي الأرض ماتصلح للْفلاحة، لا لحاجة أخرى .تخدم فيها عام ماتوكلكش شهر.

يجيب الشيخ: إيييه يابني ... ، أنت ماتعرفش لرض، ماتعرفش الفلاحة، هذي هي أرضنا، اللّي يتهلّى فيها تعطيه مايكفيه.)

يتضّح لنا من خلال نصّ هذا الحوار أنّ الشيخ تتوحد رؤيته مع رؤية الخالة " رحمة " لأبناء قريته اللّذين أهملوا خدمة الأرض ورغبوا في الغربة بحثا عن رفاهية العيش. وهو مايؤكّده أيضا المشهد التالي:

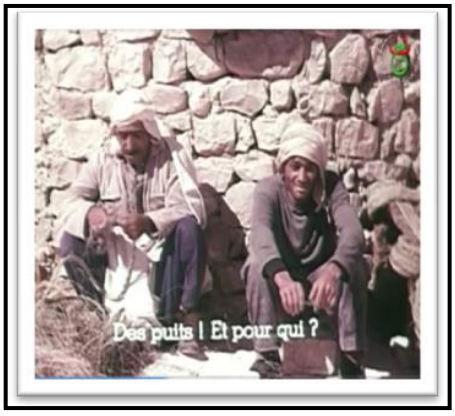

في هذه المتتالية يسأل "الشيخ " " رابح الراعي" عن سبب توقفه عن رعي الأغنام عند " عابد بن القاضي"، حيث جاء نصّ الحوار كما يلي :

(الشيخ: واش رابح بطّلت الخدْمة.

رابح: بطّلت.

الشيخ: كاش ماصبت خدمة أخرى.

[...]

رابح: مالا نروح لفرنسا .

الشيخ: إييه يابني فرنسا، خدْمت فرنسا كي خدْمت الخمّاس ، مولاها يتمنّى الرّبح وهو ديما خاسر)

إنّ كلام الشيخ يكشف عن وعيه السياسي ونضجه الفكري وخبرته في الحياة ، وهذا مايحاول توضيحه لأبناء قريته.

رابح الراعي: هو شاب في مقتبل العمر، اشتغل في رعي الغنم عند " عابد بن القاضي"، كان مخلصا في عمله ليوفّر قوت يومه له ولأمه . إلى أن جاء يوم أهانته فيه "نفيسة " عندما أراد التقرب منها قائلة " يالراعي الكلب" . فتوقف عن العمل وسافر إلى الجزائر العاصمة بحثا عن عمل آخر.

رابح الراعي هو شاب أمي، لكن له مواقف انسانية تكشف عن روحه الوطنية ، ومن ذلك نذكر مواقفه الاجتماعية مع العجوز " رحمة"، و" نفيسة" التّي أنقذها بعدما لدغتها أفعى .وأهمّ بعد وطني يظهر في شخصيته هو نظرته المستقبلية لضرورة تغيّر الوضع في البلاد، ويكشف عنه نصّ الحوار الذّي جاء في المتتالية التالية :

جاء نص الحوار كما يلي :

(رابح: الدنيا كلّها كحلة، والبلاد كي السّجن ، لازم الأشياء تتغيّر ، لازم تتبدّل.
الشيخ : يلا لازم تتبدّل مالا عليكم أنتوما اللّي تبدلوها ، أمّا حنا فاتنا الوقت .)

وكخلاصة لما سبق نستنج أنّ شخصيات الفيلم تتفاوت في التمثيل السّينمائي للمواطنة ، حيث يمثّل كلاّ من " نفيسة" و" سي مالك " القطبين الرئيسيين في تجسيد أبعاد المواطنة نظرا لثقافتهما، إذ يذهب " تالكوت بارسوتر" إلى اعتبار (المثقفين بأنّهم المتخصصون في أمور الثقافة التّي يصنعونها، فوق الاعتبارات الاجتماعية اليومية المعتادة) (الزنيدي، 2009، صفحة 33)، فهما يسعيان إلى بثّ الوعي السياسي والاجتماعي والثقافي في القرية .

في حين أنّ " عابد بن القاضي" يمثّل شخصية معادية لكلّ قيم وتمثّلات المواطنة ، فهو والد نفيسة رجل من أعيان القرية ، ويعدّ شخصية اقطاعية غايته المحافظة على أملاكه ، وهذا ماجعله يسعى لتزويج ابنته " نفيسة " من " سي مالك "شيخ البلدية. يرى أنّ المرأة ليس لها الحقّ في التعليم أو التعبير أو اختيار زوجها ، فالعبودية للمرأة والحرية للرجل.

إنّ فيلم " ريح الجنوب" فيلم اجتماعي، يعالج الواقع الجزائري بعد الاستقلال، ويطرح في تدفقه السّردي قضايا المواطنة كمفاهيم أساسية على كلّ مواطن تبنّيها والعمل بها لبناء مجتمع سليم يحيا في كرامة الحرية .

قائمة المراجع:

1) بلقزيز عبد الإله ، (2001)، في الديمقراطية والمجتمع المدني ،، ط1، أفريقيا الشرق.

2) حسن مصطفى، (2004)، إشكالية التربية على المواطنة وحقوق الإنسان، مجلة عالم التربية، ع: 15.

3) دولا فيكتورا كونتين، (2013)، مفاهيم المواطنة والفضاء العمومي عند حنة ارنت وهابرماس ، تر: نور الدّين علوش، مجلة إضافات ، ع: 22، مركز دراسات الوحدة العربية –بيروت–.

4) الزنيدي عبد الرحمن بن زيد، (2009)، المثقف العربي بين العصرانية و الإسلامية ، دار كنوز اشبيلية للنشر والتوزيع ، الرياض .

5) عتيق عمر، (2011)، ثقافة الصورة –دراسات أسلوبية– ، ط1، عالم الكتب الحديث .

6) العليوي فايد، (2012)، الثقافة السياسية في السعودية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء .

7) كاظم الطّائي مصطفى حميد، (2007)، الفنون الإذاعية والتلفزيونية وفلسفة الإقناع ، ط1، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر .

8) ابن منظور، (1968)، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت، م13.

9) lerober, (1999), dictionnaire de sociologie ,edition seuil,paris.

10) schnapper dominique, (2000), quest-ceque la citoyennetè,edition gallimard.